

جامعة القرويين وطرق التدريس بها

جمع وإنشاء: وفاء الداودي

بناء القرويين:

منذ الانفصال عن الخلافات العباسية ببغداد وعلى عهد هارون الرشيد تم تأسيس الدولة الإدريسية على يد إدريس بن عبد الله، الفار من مجازر العباسيين إلى المغرب، ولكن هارون الرشيد لم يمهلها كثيرا. فبعد خمس سنوات من إعلان الانفصال قام العباسيون بقتل إدريس ابن عبد الله مسموما ليتسلم فيما بعد الحكم ابنه إدريس الثاني الذي أسس مدينة فاس عاصمة للأدارسة.

وفي أيام الإمام يحيى بن الإمام إدريس الثاني الذي استمرت خلافته 15 سنة، منذ توليه الخلافة سنة 234هـ الموافق 849/848 م. إلى أن توفي سنة 249 هـ، عظمت الدولة الإدريسية واتسعت رقعتها، واستبحر العمران في المغرب وخاصة في مدينة فاس، وانتشر العدل والرخاء، وعم الأمان فقصده الناس فاس بالرحلة إليها والسكنى فيها من أقطار المغرب وأفريقيا والأندلس، فبنيت المساجد والجوامع والمدارس وشيدت الأسواق والحمامات والفنادق، ونثرت الطواحي والرباض بين جنباتها خارج فاس، حيث ضاقت بسكانها واكتضت، وكانت عدوة القرويين منها، تسكنها أسرة من أعرق الأسر العربية الوافدة من القيروان، هي أسرة محمد بن عبد الله الفهري وبنوه، وفيهم كريمته فاطمة أم البنين ومريم. مات الأب والأبناء الذكور وتركوا لفاطمة ومريم مالا طائلا، وثرأ عريضا، فرصدته لوجه الخير والبر والاحسان، فاشترت مريم أراضي وبنتها مسجدا، عام 245 هـ وفي سنة 321 هـ، نقلت إليه خطبة جامع الشياخ، ويعرف بجامع الأندلس منذ تأسيسه إلى الآن، حيث بني بعدوة الأندلس.

واشترت أختها فاطمة أم البنين أرضا وشرعت في بنائها مسجدا بيوم فاتح رمضان، عام 245 هـ وهو المعروف بجامع القرويين منذ بنائه إلى اليوم. أتمت البناء صائمة فصلت فيه شكرا لله تعالى، حيث وفقها لتشيده بمال حلال وتراب حلال وأيد طاهرة لم يلوثها الحرام. وعلى مر الدهر والأعوام، تنافس الملوك والدول في توسيع بنائه، ورصد المال للقيام به، فزاد فيه أيام الدولة الزناتية أميرها أحمد بن أبي بكر من خمس الغنائم عام 345 هـ، وزادت مداخيله وتم توسيعه على عهد الدولة المرابطية أيام علي بن يوسف بن تاشفين، ثم لم يزل يوسع ويجدد وتزداد أوقافه أيام الدولة الموحدية والمرينية والوطاسية والسعيدية إلى الدولة العلوية التي نعاصرها. والقرويين من يوم بني. أسس جامعة وجامعا، جامعا لإجتماع جميع سكان فاس إلى الجامع للاستماع إلى خطبة الجمعة أربع مرات كل شهر. كما أن خطب القرويين جامعا، كانت دروسا عامة للجميع، ومحاضرات علمية يحضرها الرجال والنساء والأطفال، ويختار لها كبار العلماء وأبلغ الخطباء، والصالحون من الدعاة لتربية الشعب وتهذيبه وتعليمه وتوجيهه الوجهة الصالحة في دينه ودنياه بجميع أفرادها.

القرويين جامعة

القرويين صارت جامعة يوم تم فيه بناؤها جامعا، وقد نافسها في ذلك جامع الأندلس الذي بنته مريم الفهرية في بادئ الأمر، إلا أن هذا الجامع صار فرعا من القرويين بل أكبر فروعها الملحقة به للتدريس و الدراسة. فعند بناء فاس، خطب الامام ادريس الثاني في الناس معلنا أنه ما بناها الا لئلي في كتاب الله ، و تقام فيها حدوده وتعلم فيها شرائع الاسلام قرآنا وحديثا. وقد تم باذن الله لإدريس الثاني ما نواه، حيث صارت فاس دار علم ودين بظهور جامعة القرويين في أيام حفيده يحي بن محمد بن ادريس.

فاذا عدنا الى أوربا نجد أن أقدم جامعة بها هي جامعة سالير، تأسست سنة 1050 م في ايطاليا، لتعرف فيما بعد بمدرسة نابولي، ثم تأسست جامعة بولونيا للحقوق، ثم جامعة باريس، وقد اعترف بها لويس السابع سنة 1180 م ، ثم جامعة تادوا سنة 1222 م . ثم جامعة أكسفورد عام 1249 م ثم جامعة كمبردج عام 1284 م ، فجامعة سالامنكا في اسبانيا سنة 1243 م .

أما جامعة القرويين ، كما ذكرنا فقد تأسست عام 245هـ / 859 م ، وهكذا تكون القرويين أقدم جامعة في العالم ، بحيث سبقت أول جامعة في أوربا، ب 191 سنة وجامعة القرويين أقدم من جامع الأزهر الذي بناه جوهر المغربي سنة 360هـ ب 120 سنة. وقد ذكر دلفان..... في كتابه " حول فاس و جامعته و التعليم العالي بها " الموطوع سنة 1889 م "أن فاس هي دار العلم ، و أن القرويين هي أقدم مدرسة في الدنيا" و القرويين منذ القرن الثالث الهجري... غاية العلم من افريقيا و الأندلس يقصدونها لتلقي علوم التفسير و الحديث و الفقه و الاصليين: (أصول الدين و علم الكلام) ولتلقي علوم اللغة و النحو و البلاغة و النثر و الشعرو الأدب، و لتلقي علوم الفلسفة و الحكمة و الفلك و الطب و الهندسة.....

العلم بالقرويين

قديمًا قيل عن فاس "إن العلم ينبع من فاس كما ينبع الماء من أرضها" وقالوا أيضا: "ولد العلم بالمدينة المنورة، وربى بمكة المكرمة، وطحن بمصر و غربل بفاس" . وعند ما نقول القرويين منارة العلم الأولى، فمثلا في القرن 6 هـ الموافق للقرن 12 / وصف المؤرخ المغربي عبد الواحد المراكشي في كتابه "المعجب" فقال: " و مدينة فاس هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا، و موضع العلم فيه، اجتمع فيها علم القرويين و علم قرطبة، و ما زلت أسمع المشايخ يدعونها ببغداد المغرب.

ونستشهد أيضا بما قاله الأجانب عن جامعة القرويين ومدينة فاس، ففي أول القرن التاسع عشر الملاي أقام في المغرب باديان بليش أربع سنوات من 1803 م إلى 1807 م ، وكتب عن فاس و علومها في كتبه عن رحلة (ثلاث مجلدات) طبعت بباريس سنة 1884 م : جاء فيها : " إن مدينة فاس في إفريقيا ، أشبه بأثينا عاصمة الفكر في أوربا" . وفي القرن 16 م أقام أكلبنار البلجيكي بفاس سنة 1540 م أيام السلطان أحمد الأعرج السعدي، وكتب رسائل

باللاتينية وصف فيها القرويين و العلوم التي كان يتلقاها بها ، وعادات الطلبة و المدرسين وطريقة التدريس و فنون العلم المدرسة فيها، فكانت ، حسب هذا الطالب الأجنبي هي: التفسير و الحديث والأصول و الفقه و النحو و البيان و المعاني و البديع و المنطق و العروض و الحساب و التنجيم و الكلام و التصوف و اللغة و التصريف و التوحيد و التاريخ و الجغرافية و الطب و القضاء و الأحكام و الأدب" ويقال عند بعض المؤرخين أن طالبا كان اسمه جليبر كان يدرس بالقرويين وهو الذي عُرف بالبابا سلفستر، هو من أدخل الأرقام العربية إلى أوروبا نقلا لها عن المغرب.

بعض علماء القرويين

- من نماذج هؤلاء العلماء من القرن 6 إلى القرن 13 هـ المعلمون المرهبون الهدات :
- بكر أبو محمد الحورائي: الفقيه الإمام العارف ، له ز يادات على المدونة
 - محمد بن يوسف المزدغي: المفسر المحدث المفتي، مستشار الدولة له مؤلفات في التفسير و الحديث و الفقه مات سنة 655 هـ و عمره 32 سنة
 - أحمد لقباب: كان إماما و مدرسا و فقيها ومفتيا. وقاضيا بجبل طارق، و مستشار للسلطان ، له فتاوى مدونة في "معيار الونشريسي" وله مؤلفات أخرى ، ولد سنة 724 هـ و مات سنة 778 هـ
 - محمد بن عباد : الإمام الأديب، قام بشرح حكم ابن عطاء الله وجزرها في 801 بيت ، وله مؤلفات أخرى، مات سنة 792 هـ ، وقد أوصى عند موته بصندوق لديه اوقفه على جامعة القرويين، فُنُفدت وصيته وُفُتِح الصندوق، وإذا فيه 1800 مثقال ذهب ، وإذا بهذا الذهب هو كل ما أخذ أجره على خطبته و إمامته في القرويين، تورع عن أخذها و ردها لتتنفق في مصالح الجامعة، فاشترى بها حمام، وهو المعروف بحمام لبن عباد في شارع القطنين بفاس، وكان دخل هذا الحمام وقفا على القرويين.
 - عبد العزيز الورياجلي: العلامة الزعيم الأمر بالمعروف و الناهي عن المنكر مفتي فاس، ولد سنة 802 هـ و مات سنة 880 هـ ، وهو الذي أوقف غابة الزيتون على المنادي بعد إقامة الصلاة بجملته "أعدلوا الصفوف رحمكم الله" وغير هؤلاء كثير لا مجال لذكر جميع الأسماء في هذه المرحلة . كما عرف علم الفلك تطورا كبيرا من القرن 8 إلى القرن 12 هـ ، ومن فلكيو هذه المرحلة نجد: - عبد الرحمان الجاديري : إمام علم الفلك، ولي توقيت القرويين، و له في التوقي و علم الفلك مؤلفات كثيرة، ولد سنة 776 هـ و توفي سنة 818 هـ .
 - مسعود الطليطي: الفقيه و مؤقت القرويين، وهذه المهمة كانت من اختصاص علماء الفلك المقنترين، بحيث تسند لهم مهمة ضبط أوقات الصلاة طيلة السنة اعتمادا على حركات النجوم و الكواكب و الشمس.
 - أ بو جيدة المشاط: كان فقيها وأديباو فلكيا مشهورا. مؤقت منارة القرويين توفي سنة 1148 هـ.

نظام التدريس بالقرويين

مفهوم كرسي العلم في القرويين

كان للقرويين كراسي العلم منذ بدايتها، و لهذه الكراسي أو قاف خاصة تخصص للأنفاق على العلم و المدرس و الطالب المتلقي بحيث توفر للطالب: العلم و مسكن و مأكله، و لكل علم كرسي خاص به منذ قرون، و لكل علم حلقة تحيط بالكرسي (كرسي للتفسير و كرسي للحديث و كرسي للفقهاء و كرسي للفلسفة و كرسي للرياضيات و كرسي لعلم البديع و كرسي للنحو إلخ....

و كرسي العلم بالقرويين يعتبر ولاية حكومية عليا، ممكن أن تقارن الآن بمنصب الوزارة أو القضاء أو الفتوى، فمثلا ذكر مترجموا العلامة محمد بن إدريس العراقي، إمام النحاة في عصره، أنه ولي كرسي سيويه في النحو (مات هذا عام 1142م) و له في شرح كتاب سبوه رسائل كثيرة.

- كما أن علي المدغري المتوفي سنة 951 م على عمر يناهز 80 سنة، ولي ولايتين في نفس الوقت، الفتوى و التدريس، و الخطابة بالقرويين.

- و العالم الفذ عبد الواحد الونشريسي ولي ثلاثة ولايات في نفس الوقت (الفتوى بفاس، و القضاء، و التدريس بالقرويين).

فكرسي التدريس بالقرويين يعتبر منصبا حكوميا ساميا يعبر عنه بلغة العصور السابقة بخطة من خطط الدولة وولاية من ولاياتها، و عن القرويين أخذ العالم بعد ذلك نظام كراسي العلم، و نظام الأستاذ الجامعي الكبير، لا يصل إليه الأستاذ الجامعي إلا بعد مراحل من الاستاذية و درجات، و لا يتم له ذلك إلا في سنين من التدريس في الجامعة.

طلبة القرويين

و القرويين كانت منذ القديم يرحل إليها الطلاب من الأندلس و إفريقيا، و يلزم علماءها المئات، بل الآلاف من الطلبة، و قد يحضر درس عالم واحد في القرويين بضعة آلاف طالب. ففي القرن الثامن الهجري كان بالقرويين مجموعة من العلماء أصحاب كراسي التدريس الذين يتعدى عدد الطلبة المحيطين بكراسيهم المئات.

- فمثلا العالم عبد المؤمن الجناتي: كان يحضر كرسي فقهه أزيد من 400 فقيه، فيهم مائة معمم،

يحفظون "المدونة" و كان لا يعمم إلا من أذن له بالتدريس و أجاز به أساتذته، ولد الجناتي سنة 675 هـ و مات سنة 746 هـ.

- و عبد الرحمن الجزولي: كان يحيط بكرسيه أكثر من ألف فقيه، معظمهم يستظهر المدونة ذا العديد من المجالات.

و الحسين بن منديل المغربي : الفقيه الحافظ ، المتوفي عام 803 هـ حضر دروسه الإمام
رزوق فقال عنه: "حضرت مجلس ابن منديل بجامع القرويين فحزرته بنحو من 3000
رجل!"
المدارس التابعة للقرويين (الملحقات)

و القرويين حين اكتظت رحابها بالطلبة القادمين إليها لطلب العلم من الأندلس و إفريقيا
و جميع مدن المغرب وقراه، ضاقت فاس عن ان تستوعب لهم المنازل و المساكن، ففكر
السلطين في حل ذلك، (خاصة ملوك المرابطين و بنو مرين) وجاء الحل هو بناء مدارس
فيها جمع وسائل الراحة من مساكن وقاعات للمطالعة ومساجد للصلاة، وقد بدأت عملية
التدريس بهذه المدارس في القرن الخامس الهجري ثم التست رقة تواجدها في القرن
7 هـ .

فقد أنشأ السلطان المجاهد العابد أبو يوسف يعقوب مدرسة الحلفاويين بفاس سنة 670هـ
ثم أنشأ السلطان أبو سعيد مدرسة العطارين، و مدرسة البيضاء ثم مدرسة الصهريج ،
فمدرسة الوادي، و مدرسة المصبا؛ كلها بفاس. و أنشأ السلطان أبو الحسن في كل بلاد
المغرب (الأقصى و الأوسط): مدرسة بتازة مدرسة بمكناس و سلا و طنجة و سبتة
و أنفى (الدار البيضاء) و أزموور و اسفي و أغمات و مراکش و القصر الكبير، و مدرسة
العباد بتلمسان و مدرسة بالجزائر العاصمة. إلا ان المدارس عرفت بفاس كما سلف
الذكر على عهد المرابطين، أي قبل بناء هذه بقرنين. ففي "القرطاس" للإبن أبي زرع ان
أول مدرسة بفاس هي دار المرابطين لطلبة العلم بناها و جاج بن زلو المطي
و كانت هذه المدارس عبارة عن حي جامعي بنسبة للطلبة في القرويين و عن القرويين
اخذت أوروبا فكرة الحي الجامعي بعد ذلك، و كان لكل طالب في القرن (5 هـ الموافق
11م) خبزة في اليوم ترن رطلا مغربيا و قد ذكر أكليين آر البلجيكي و كان طالبا في
القرويين سنة 948هـ / 1554م ان فاس كان بها من المدارس 200 مدرسة .
فمن المدارس القائمة إلى اليوم و تعرف بمدارس القرويين، أو ما يعرف اليوم بالملحقات
، و هي عبارة عن آية في الروعة من حيث الهندسة المعمارية و النقوش، نجد:
مدرسة المرابطين بناها يوسف ابن تاشفين المرابطي على يد و جاج بن زلو اللمطي، -
عاش يوسف من 410 هـ / 1016م إلى 500 هـ إلى 1106م و حكم المغرب
و الأندلس نحو 40 عاما . و هذه المدرسة تعرف اليوم بمدرسة الصبارين او ابن
مدين. - مدرسة الحلفاويين بناها سلطان المغرب الأقصى (المغرب) و المغرب
الأوسط (الجزائر) و الأندلس، أبو يوسف المريني سنة 670 هـ / 1276م .
و أوقف عليها الأوقاف و جرى على طلبتها المرتبات. وفي سنة 684هـ/1290م، لما
طلب منه حاكم شمال اسبانيا الهدنة عند التقائه بالجزيرة الخضراء وهذا الحاكم هو
<سانجة الاسباني> اشترط عليه أبو يوسف المريني لسترجاع كتب العلم التي بأيدي
المسيحيين ، منذ استيلائهم على المدن الأندلسية ونهب مكتباتها، فبعث له بعدد كبير
منها، فيها جملة من المصاحف الكريمة، و تفاسير القرآن، كتفسير بن عطيت
و التعلبي، وفيها جملة من كتب الحديث و شروحا ك: <<التهذيب>>
و <<الاستذكار>> و كتب الأصول و الفروع و اللغة العربية، فحبسها السلطان
المريني على مدرسة الحلفاويين و هي تعرف اليوم بمدرسة الصفارين.

قال المؤرخ المعاصر للدولة المرينية محمد الناصري في كتابه <<الاستقصاء>> <<واقفتى أثره بنوه بعده، فاستكثروا من بناء المدارس العلمية، ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن، والفقهاء لتدريس العلم، وأجرى عليهم المرتبات، والمؤون في كل شهر وحبس عليها الرباع والضياح>>

- مدرسة العطارين بناها السلطان أبو سعيد المريني سنة 723 هـ / 1329 م ، فجاءت من أعجب الفنون المعمارية وأجملها ، وشحنها بالطلبة ورتب فيها امام ومؤذنين وقيمين بأمرها، ورتب فيها الفقهاء لتدريس العلم، وأجرى على الكل المرتبات (الأجور) والمؤون وفق الكفاية، واشترى عدد أملاك وأوقفها عليها .
- المدرسة البيضاء: بناها نفس السلطان ب 3 سنوات قبل مدرسة العطارين وكانت آية في الجمال ، وصنع بطلابها وفقهاء نفس ما صنعه بمدرسة العطارين وهذه المدرسة جددها السلطان العلوي محمد بن عبد الله المتوفى سنة 1204 هـ / 1810 م. وتعرف هذه المدرسة الآن بمدرسة فاس الجديد.
- كما بنى نفس السلطان مدرسة الصهريج .
- المدرسة البوعنانية ، بناها أبو عنان المريني فارس المتوكل على الله. ولما تم بناؤها بشكل رائع وأبهرت من رآها ولا زالت الى الآن من أهم المآثر بمدينة فاس . أعطاهم القائم على بنائها قائمة المصارف، فرأى أن ما صرف فيها كان مالا طائلا ، فأخذ القائمة ورمى بها في النهر و أنشد شعرا:

ليس لما قرت به العين ثمن < لا بأس بالغالي اذا قيل حسن

- ثم أمر بصناعة ساعة شمسية مقابلة للمدرسة ، صنعها الفلكي الموقت أبو الحسن علي بن احمد التلمساني عام 758هـ/ 1364م. وهذه المدرسة جددها السلطان العلوي سليمان المتوفى سنة 1238 هـ / 1844 م.
- مدرسة جامع الأندلس : بناها أبو الحسن المريني عندما كان وليا لعهد أبيه أبو سعيد، سنة 721 هـ / 1327 م . وهي مدرسة رائعة الجمال و متقنة الهندسة والبناء، وبنى حولها سقاية ، ودار للوضوء، و فندقا لطلبة العلم، وأنفق على ذلك أموالا كثيرة تزيد على 200.000 دينار، وامتلئت بالطلبة و أوقف عليها رباعا كثيرة ورتب فيها الفقهاء للتدريس وأجرى عليهم النفقة والكسوة.

المراجع:

فاس عاصمة الأدارسة \ الدكتور الكتاني -

جامع القرويين \ الدكتور عبد الهادي التازي سعود

القرطاس \ ابن ابي زرع

الاستقصا \ الناصري